

فقاعتي

خلال خمس سنوات من العمل المباشر مع ضحايا التعذيب (في مركز ضحايا التعذيب) إختبرت الكثير من التجارب الإنسانية المختلفة والتي أظهرت لدي مشاعر وأفكار لم أختبرها في السابق. لم أكن أتخيل أنه من الممكن أن أذهب لمكان في حي ما دون أن أزور تلك المدينة، أو أن الشخص من الممكن أن يشاهد حدثا لم يعيشه ، الأمر الذي كان يحدث لي عندما كنت أستمع لحدث من أفراد عائلة واحدة أو من أشخاص مختلفين عاشوا نفس الموقف ، لقد قرأت وعملت مع العديد من الأشخاص الذين تعرضوا لصدمات مختلفة ولكن الإستماع لحدث واحد من أشخاص مختلفين ومشاهدة ردود الأفعال المتباينة بينهم كان تجربة فريدة بالنسبة لي، حيث يمكنك مع مرور الوقت تصور الحدث من جميع النواحي العاطفية والنفسية، مع الوقت أصبح من الممكن لدي أن أستم الرائحة وأشاهد الأشخاص أن أرى ذلك المكان أمامي .

في أحد أحياء مدينة حمص والتي أصبحت جزء من ذاكرتي (ذاكرتي الحمراء) الحي الذي سمعت الكثير عن وصفة قبل أن يختفي للأبد أنه حينما القديم الذي يضج بالحياة حيث تعانق الآثار القديمة منازل السكان، ساحة المسجد الكبيرة حيث لا تتوقف الحياة عن النبض، بائعين متسوقين، زوار رائحة الياسمين العتيق، ذلك الدفء الذي قد لا يعود على الأقل للبعض ممن قد لا يعودوا لحيهم . لقد اصبحت المسافة أميالا أنها نقطة الالعودة.

في صباح يوم لم يكن كسابقة تلك البداية التي غيرت الكثير، تغيرت ملامح المدينة الجميلة، الكثير من الدمار والغرباء الذين سيصبحون رمزا للرب لسنوات قادمة ، لحظات من الخوف المشترك على النفس والأحبة وعلى ذاكرة لما هو قادم، هو حينما وهذا بيتي الآمن وهذا صوت جيراني من بعيد وفي الناصية الآخري بيت أخي ولكن الآن الكل يبعدوا بعيدا. مشاهدات مختلفة عايشتها من قلب الحدث .

لقد بدا المكان مخيفا من تحت الأنقاض ولكن صوت الجنود من فوقي كان مخيفا أكثر ، كل ما كان يجول في فكري أن الموت أفضل من البقاء ، أن الأسوأ قادم، لم أحاول التحرك أو طلب المساعدة لقد تجمدت في مكاني .

على الجانب الآخر من الحي كان الوضع مخيفا أكثر- وجها لوجه- مع الجنود رجال طويلي القامة بلحي طويلة (سمعت العشرات من الوصوف المرعبة للمهاجمين الني تشابهت برعب واختلفت بالوصف) صوتهم مرعب أشكالهم غريبة ليسو من بلدنا لا أستطيع فهم لغتهم لقد

عصبوا أعيون أخي وأبي وأخذوهم بعيدا وضربو أمي, مشاعر مختلطة من الإحساس بالفرح لأنهم غادروا والخوف على مصير والدي وأخي المجهول.

كنت مختبئاً في منزلي القريب من مركز المدينة سمعت أصوات أستغاثة على الباب, هو صوت مألوف أنها زوجة أخي اللذان كانا يحاولان الهرب من ذلك الجحيم, كان أخي يقود السيارة مبتعداً عن الاشتباك إلى أن أوقفته رصاصة قناص على أحد الأسطح المجاورة لا أستطيع نسيان بقايا أشلاءه التي توزعت على ملابسها وهي تلهث محاولة القول أنه لن يعود .

أنها ليست القيامة وهذا اللون الأبيض ليس لون الجنة أنها أحد المستشفيات في تلك المدينة لقد عملت فيها لعدة سنوات ولكن هذا يوم مختلف أنه يوم دامي بكل تأكيد , هذا اليوم الذي سأشعر بعدة بالضيق في كل مرة أشاهد فيها لون البلاط الأبيض والذي أصبح ملطخاً بالأحمر بعد عدة دقائق من وصول الجرحى والقتلى لم أكن أتخيل أن تكون أبنتي ذات الأربع سنوات أهدى هذه الجثث على الأقل لم أن مستعدة لذلك .

ليس بعيدا عن الحي و في أحد المعتقلات القريبة من المدنية وبعد أن أمضيت أسبوعاً أحاول أن أنقذ أحد الأشخاص جانبي والذي لم أستطيع أن أميز صوته أو أن أشاهده من شدة أنتفاخ عياني بسبب الضرب والتعذيب, صوت أنين مستمر كان يطلب الماء وكنت بالقرب منه تحسست مصدرا للماء قادما من الحائط منه رشح لمبرد هواء في الطابق العلوي أخذت قطعة من القماش بللتها ووضعتها على شفتيه ولكن لم يكن ذلك كافياً لبقائه على قيد الحياة , لقد صمت بشكل مفاجيء لم يعد يتألم وفي صباح اليوم التالي أستطعت أن أفتح عياني لأرى جثة أخي ممددة بجانبني لقد كان أخي يئن طوال هذه المدة بجانبني دون أن أعرف , ليت أني لم أفتح عياني مجدداً.

كأخصائية نفسية لم يكن غريباً لدي أن أستمع وأتعاطف مع هذه القصص ولكن كان من الصعب لدي أن أعود لأستمع مرارا الى القصة ذاتها من راوٍ مختلف, الكثير من المشاعر الصعبة والمعقدة ولكن الأصعب لدي كان ربطتي للأحداث بصورة مباشرة في كل مرة سمعت فيها اسم الشارع أو المكان, أنها مجزرة وأصبحت إحدى الشهود عليها ,لقد كانت ذاكرتي القوية إحدى المميزات لدي والتي ساعدتني بالكثير من المواقف في حياتي لكن الآن الوضع مختلف هذه الذاكرة متعبة الكثير من الدم والدمار ,وفي تلك اللحظة أدركت أني بحاجة للمزيد من الرعاية الذاتية وأن التعاطف والعمل مع المراجعين هو هدفي السامي ولكن غير كافي لكي أبقى بخير أنا بحاجة لفقاعتي الخاصة والتي بإمكانها أن تُخرج التعاطف والدعم ولكن

هي عازلة لنقل المشاعر الصعبة وتخزينها داخلي ، لم يكن من السهل فعل ذلك ولكنها أصبحت ضرورة للبقاء صامدةً ومحبةً لعمل النبييل , اذ يجب أن نساعد أنفسنا أولاً لكي نكون قادرين على مساعدة الآخرين .